

معروف الرصافي محلّ اجتماعي للفقير والحرمان

إسماعيل نادري*

الملخص

ولد الشاعر معروف الرصافي سنة ١٨٧٥م ببغداد، إنّه لما كبر ونضج أدبه حاول أن يشارك آلام مجتمعه؛ فالكثير من أجمل قصائد الرصافي تتحدث عن المسائل الاجتماعية ولاسيما الفقر والحرمان، حتى لقب بشاعر البؤساء، وهذا يرجع إلى أسباب أهمها هي: السبب النفساني، بيئة الرصافي، وحساسيته؛ ما كان الرصافي من الذين رأوا الفقر والحرمان في المجتمع فبدل أن يحلّوهم تلاحبوا وأمحو صورة المسألة، بل بحث عن أسبابهما وهي: الجهل، العادات البالية، والتقاليد الموروثة الموهنة للإرادة، الإهمال والتواكل والتخاذل، والاستعمار؛ وأرى الناس طرق مكافحة الفقر وهي: كسب العلم، الإحسان من جانب الأغنياء، بث روح التعاون في المجتمع، وعدم الإسراف والاقتصاد في الحياة.

الكلمات الدليلية: معروف الرصافي، الفقر والحرمان، المجتمع.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية في علي آباد كتول - أستاذ مساعد.

Esmailnaderi@yahoo.com

تاريخ القبول: ١٠/١٠/١٣٨٩هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٠/٥/١٣٨٩هـ. ش

المقدمة

ولد الشاعر معروف الرصافي سنة ١٨٧٥م ببغداد حيث أكمل دراسته فيها تحت تعليمات أساتذة كالشيخ محمود شكري آلوسى. (بركة، ٢٠٠٥م، مجلة مفكرة الإسلام) وهو الذى قال له: «سيكون لك يا معروف شأن فيما بعد، فإن كانت الكرخ تفتخر بـمعروف الكرخى فما أحرى الرصافة بأن تفتخر بـمعروف الرصافي.» (زكى، ١٩٤٥م: ١٩٦)

انتقل إلى القسطنطينية والقدس إلا أنه عاد بعد إتمام دراسته إلى وطنه وعمل كـنائب لرئيس لجنة الترجمة والتعريب ثم انتخب عضواً فى مجلس النواب خمس مرّات مدة ثمانية أعوام. (الأعظمى، ٢٠٠١م: ١٥٨) وعندما قامت ثورة رشيد عالي الكيلانى ببغداد فى أوائل الحرب العالمية الثانية نظم أناشيدها وكان من خطبائها ولما فشلت عاش فى شبه عزلة من الناس إلى أن توفى فى بيته ببغداد سنة ١٩٤٥م. (الفاخورى، ٢٠٠٢م: ٤٨٧) مصابا بالفقر الذى عالجه فى شعره الممتاز بمتانة اللغة ورصانة الأسلوب.

كثر همّ الشعراء المعاصرين إلى هموم الشعب وطموحاتهم، والرصافي كان من أوائل الطليعة الواعية التى تفاعلت مع آمال الشعب، وعنى عناية خاصة بقضاياهم الاجتماعية والسياسية، ولاسيما الفقر والحرمان لأنّه منذ أن فتح عينيه رأى نفسه ومجتمعه فى الفقر والحرمان يتألم تألماً شديداً منهما، فحاول أن يحلّ هذه المشكلة كمحلل اجتماعى حاذق، وهذا المقال توضيح مسلكه ولم يتطرق ناقد آخر إلى هذا الموضوع من قبل إلا أنّ هناك عدداً كثيراً من الكتّاب والنقاد تكلموا عن الرصافي فى آثارهم، واطّلع راقم هذه السطور على بعضها، منها أعيان الزمان وجيران النعمان فى مقبرة الخيزران، لوليد الأعظمى ومقالة معروف الرصافي.. وقصيدته يوم الفلوجة، لمحمد بركة والرصافي وتفكيك النظام الثقافى، لناظم عودة.

حاول الرصافي فى شعره أن يشارك آلام مجتمعه إلا أن الأدب التقليدى سدّ أمام المشاركة، فنار عليه أخذ الشعر من قصور الملوك والحكّام إلى عالم الشعب، وتاركا التعبير لحسّه ولمشاعره ولذوقه وفكره فتدفّق أدبه من الجمود وخرج للحياة يتلمس



منها موضوعاته الاجتماعية.

فالكثير من أجمل قصائد الرصافي تتحدث عن المسائل الاجتماعية ولاسيما الفقر والحرمان واليتم وافتقاد الطفل لحنان الوالدين، مثل اليتيم في العيد والأرملة المرضعة وسواهما حتى لُقّب بشاعر البؤساء، وهذا يرجع إلى أسباب أهمها هي:

١. السبب النفساني:

كان والد الرصافي كثير التغيب عن الدار لذلك عاش الشاعر سنواته الباكرة مع أمّه وحيدا، فنجدته يتحرق قلبه حبا لأمه في شعره ولاسيما حين غادر العراق أنشد لأمه:

وطفقت أذكر العرا ق فعاد صفوى ذا كدور
وذكرت من تبكى هنا ك على بالدمع الغزير
يا أم لا تخشى فإنّ الله يا أمى مجيرى
ودعى البكاء فان قل بى من بكائك فى سعير

(الرصافي، ٢٠٠٢م: ٣٠٦)

ولانجده يتكلم عن أبيه أبدا في شعره، فهو أحسّ بنفسه مباشرة طعم اليتيم والفقر والحرمان فتكلم عنها كثيرا.

٢. بيئة الشاعر:

البيئة هي المربية الأولى للشاعر الرصافي، هي الأم التي يخفض لها جناح أده، ولها دور كبير في شعره لأن حاله حال أى إنسان آخر يتأثر بما حوله، فهو لم يأت من كوكب آخر لذلك تكلم في شعره عن حال أكثر من ثمانين بالمئة من سكان العراق الذين كانوا يعيشون في حالة الفقر والبؤس؛ وجهد مبلغ جهده لإسعاد المجتمع بتصوير حالة الفقراء والمحرومين واليتامي إثارة لإحساسات الآخرين لمعالجة دائهم، فاحترق حزنا كالشمعة التي تحترق لتنير الطريق لمن حولها، لأنه كان يعلم إذا تجرّد من الإنسانية والأخلاق، فقلمه يصبح شعره عبارة عن مهاترات عقيمة.

٣. حساسية الشاعر:

الرصافي شاعر إحساسى في أعلى درجات الإحساسات بحيث مجرد رؤية

الماساويات كانت تتير إحساساته وتُحزنه كثيرا، فكان يتمنى إن لم يكن يراها، أنظروا
إلى ما أنشد بعد رؤية تلك الأرملة المرضعة كيف تتير العواطف لمساعدتها:

لقيتها ليتنى ما كنت ألقاها تمشى وقد أثقل الإملاق ممشاها
أثوابها رثة و الرجل حافية والدمع تذرّفه فى الخد عيناها

(المصدر نفسه: ٤٣٣)

فقد كانت تلك البائسة تجرّ قدميها فى التناقل وبطء يشدّها الفقر إلى عالمه بلارحمة
ولاشفقة:

بكت من الفقر فاحمرت مدامعها وبات كالورس من جوع محياها
الموت أفجعها والفقر أوجعها والهّمّ أنحلها والغمّ أضناها
هذا الذى فى طريقي كنت أسمعُه منها فأتّر فى نفسى وأشجاها
حتى دنوت إليها وهى ماشية وأدمعى أوسعت فى الخدّ مجراها
وقلت: يا أخت مهلا إننى رجل أشارك الناس طرّا فى بلاياها
سمعت يا أخت شكوى تهمسين بها فى قالة أوجعت قلبى بفحواها

وهو فى آخر القصيدة يدعو بالكناية الناس إلى الإنصاف والمرحمة والإحسان إلى
مثل تلك الأرملة فى المجتمع:

لوعمّ فى الناس حسّ مثل حسّك لى ما تاه فى فلوات الفقر من تاهها
أو كان فى الناس إنصاف ومرحمة لم تشك أرملة ضنكا بدنياها
هذى حكاية حال جئت أذكرها وليس يخفى على الأحرار مغزاها
أولى الأنام بعطف الناس أرملة وأشرف الناس من فى المال واساها

ما كان الرصافى من الذين رأوا الفقر والحرمان فى المجتمع، فبدل أن يحلّوهما تلاعبوا
وتشاغلوا وأمحووا صورة المسألة، بل بحث عن أسبابهما وعللها وطرق مكافحتها.

منشأ الفقر والبؤس فى رأى الرصافى

عمل الرصافى كعالم اجتماعى ومحلل اجتماعى يرى الناس والمجتمع؛ علل الفقر ثم



يعلمهم طريق مكافحته ومن أهم تلك العلل في رأى الرصافي هي:

١. الجهل:

يرى الرصافي أن العلة الرئيسة للفقر والحرمان في المسلمين عامة، والعراقيين خاصة هو الجهل والتعصب المنتج منه، الجهل بؤابة الفقر والبؤس لأنه يستر على الواقع ولا يسمح للناس أن يروا الواقعية كما هي، ومن يعيش عن إدراك الواقعية يتعصب على ما عليه، فراح يندد مرجع التقهقر والتخلف، يعنى الجهل والجاهليين في أشعاره، أنظر إلى هذين البيتين كيف يتكلم فيهما عن الجهل الذى شبهه برائحة الثوم الكريهة التى يفضح الإنسان:

ما أقبح الجهل بيدى عيب صاحبه
للتناظرين وعن عينيه يخفيه
كذلك الثوم لم يشممه آكله
والناس تشتمّ نتن الريح من فيه

(المصدر نفسه: ٤٢٠)

وفى أبيات أخرى، استهزئ جهل العرب، واستنهضهم عنه بسخرية واضحة:

يا قوم لا تتكلموا
إن الكلام محرّم
ناموا ولا تستيقظوا
ما فاز إلا النوم
وتأخروا عن كل ما
يقضى بأن تتقدّموا
ودعوا التفهم جانبا
فالخير ألا تفهموا
وتنتبوا فى جهلكم
فالشر أن تتعلموا

(المصدر نفسه: ٥٤٢ و٥٤٣)

وفى قصيدة إيقاظ الرقود، أيضا يطلب من العراقيين أن يتركوا الجهل الذى أذلهم وجعلهم يعيشون كالوحوش فى أحسن عيش:

ركدتم فى الجهالة وهى تمشى
وعشتم كالوحوش أحسن عيش
أما فيكم فتى للعز يمشى
تبارك من أدار بنات تعش
وصفدكم بأصفاذ الركود

(المصدر نفسه: ١٩٨)

٢. العادات والتقاليد:

حارب الرصافي العادات البالية والتقاليد الموروثة التي قضت على العزائم وحالت دون التقدّم والتطوّر، ورأى فيها نظاما ثابتا لا يماشى الحياة، ورأى أن التقدم لا يتمّ إلا على رفات التقاليد الاجتماعية التي تجعل للتدبّل والتزلف أعظم قيمة للنجاح في الحياة، فراح يحاربها بسخط وانفعال وثورة وتهكّم، لأنه كان شديد التعلّق بالتقدّم والنهوض، إلا أنه ما كان يتنكّر للتقاليد النافعة والتمسك بتعاليم الشريعة، يرى الإسلام لا يعوق التقدم بل يساعد عليه لأنّ الأجداد تقدّموا به في الماضي:

يقولون في الإسلام ظلما بأنه	يصد ذويه عن طرق التقدم
فإذا كان ذا حقّا فكيف تقدمت	أوائله في عهدا المتقدم
وإن كان ذنب المسلم اليوم جهله	فماذا على الإسلام من جهل مسلم
لقد أيقظ الإسلام للمجد والعلی	بصائر أقوام عن المجد نوم
وأطلق أذهان الوری من قيودها	فطارت بأفكار على المجد حوم

(المصدر نفسه: ٥٣٠)

٣. الإهمال والتواكل والتخاذل:

رأى الرصافي الإهمال والتواكل والتخاذل من آفات تطور المجتمع، لأنّها تهدم حيويته وتودي به إلى الهلاك والتأخّر في ميدان الحياة الفسيح! وعكس ذلك النشاط فهو حياة وحياة، وعمل وعمل، فيدعو الناس أن يهبّوا من رقدتهم وأن يخلعوا ثياب التواكل والإهمال، وهو يأسى لحالهم إذ يرى ثرواتهم بسبب الإهمال والتواكل والتخاذل تتبدّد وتتلاشى وتذهب سدى دونما إدارة رشيدة أو حسن استغلال:

لا تستنيموا للزمان توكلّا	فالدّهر نزاء له وثبات
فإلى متى تستهلكون حياتكم	فوضى وفيكم غفلة وأناة
إنّ البلاد إذا تخاذل أهلها	كانت منافعها هي الآفات

(المصدر نفسه، ص ١٣٥)



٤. الإستعمار:

حكمت بريطانيا العظمى الكثير من دول العالم مما جعلها تأخذ بحق مسمى الإمبراطورية التي لاتغيب عنها الشمس، والرصافي كان مدركا لحيلها الاستعمارية ومن أهمها سياسة: «فرّق تسد» الذي اعتمده العرش البريطاني للتغلغل في سائر الدول. (الدروبي، ١٩٥٨م: ١٠٣) فدعا الرصافي العرب إلى الوحدة يقول:

بنى العروبة هبوا من مراقدم
فقد لعمري افترقنا شرّ مفترق
أما تغارون يا أهل الحفاظ على
لاتكتفوا بافتخار في أوائلكم
إلى متى نحن نشكو صولة النوب
وقد لعمري انقلبنا شرّ منقلب
حقّ لكم بيد الأعداء مغتصب
فنشوة الخمر لاتغنى عن العنب
واستعصموا باتحاد محكم السبب
بل انهضوا للمعالي مثل نهضتهم

(الرصافي، ٢٠٠٢م: ٧٦)

ومن حيلها الأخرى صنع حكومات لاتأتي بعمل ما دون رغبة سادتها الإنجليز ومشيئتها، فمن البيهية أن يندد الرصافي بالوضع الجديد، ويسخر من الحكومة التي تتصرّف في الظاهر كأنّها حكومة ولكنّها في الواقع هي مجلس دمي بأيدي الإنكليز، تحقق منافعها ومقاصدها الاستعمارية:

وإذا تسأل عمّا
فهو حكم مشرقى الض
وطنى الاسم لكن
عربى أعجمى
فيه للإيعاز م
هو ذو وجهين وجـ
قد ملكنا كل شيء
نحن فى الباطن لا نملد
أفهدا جائز فى الـ
هو فى بغداد كائن
زرع غربى الملبن
إنكليزى الشناشن
معرب اللهجة راطن
من لندن بالأمر مكامن
سه ظاهر يتبع باطن
نحن فى المظاهر لكن
ك تحريكاً لساكن
غرب يا مستر كراين؟!..

(المصدر نفسه: ٥٦٩)

وقال الرصافي عن الوزراء الذين لا إرادة لهم ولا يباليون إلا بحفظ كراسي الوزارة والراتب:

فوزير القوم لا يعمل	من غير إشارة
وهو لا يملك أمراً	غير كرسى الوزارة
يأخذ الراتب إما	بلغ الشهر سرارة
ثم لا يعرف من	بعد خراب أم عمارة

(المصدر نفسه: ٣٢٨)

ومن يطالع ديوانه يجد العديد من القصائد التي سخر فيها تلك الحكومة، ومنها قصيدته المشهورة حكومة الانتداب، التي قال فيها بعد تشكيل الحكومة ووضع الدستور وتغيير علم العراق حيث يقول:

علم ودستور ومجلس أمة	كل عن المعنى الصحيح محرف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها	أما معانيها فليست تعرف
من يقرأ الدستور يعلم أنه	وفقاً لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفرف يلقه	في عز غير بني البلاد يرفرف
من يأت مجلسنا يصدق أنه	لمراد غير الناخبين مؤلف
من يأت مطرد الوزارة يلفها	بقيود أهل الاستشارة ترسف

(المصدر نفسه: ٤١٦ و ٤١٧)

طرق مكافحة الفقر في رأى الرصافي

شأن الرصافي شأن أكثر الشعراء والكتّاب في القرن التاسع عشر من حيث الاهتمام بحالة أمّتهم وبلادهم، فقد فتح عينيه على العالم الأوربي، ورأى ما وصل إليه في مضمار الحضارة والرقى، يقارنه بحالة مجتمعه اليايسة التي تتخبّط فيها، فألمه ذلك الفقر والحرمان، فبدأ بإيقاظ المجتمع ودفعه إلى الأمام وعمل على معالجته بإرائة طرق مكافحته في الموارد التالية:



١. كسب العلم:

العلم في نظر الرصافي هو سبيل النجاح فلا حياة اجتماعية مزدهرة في ظلّ الجهالة والأوهام، ولا حياة سعيدة مع التعامى والتخلف والإحجام؛ العصر عصر العلم والشرق كان قديما منارة العالم وقلبه، فما باله يتخبّط في أوهامه اليوم وما باله ينظر إلى الغرب الذي بلغ ما بلغ بالعلم نظرة الدليل الذي لا يستطيع التحرك والعقيم الذي كاد عقله يتوقف عن التفكير.

العلم حياة ونشاط وحجر الأساس لازدياد ثروة المجتمع ولنجاته من الفقر، والرصافي يريد نجاة المجتمع من الفقر، فيحثّ الشاعر على طلب العلم والجّد فيه والمثابرة على تحصيله، لأنّه وحده يرفع من شأن الأفراد والأمم، ويبني لهم مجدهم، يرفع من مكانتهم، يغني فقيرهم، هو الفيض الذي تحيا به القلوب، والسلاح الذي به يقهر الجهل، والنور يهتدى به في الظلام فسقيا للعلم ورعيا لرعاته وطلابه ومعلميه ومعاهده:

ما أقدر العلم إنّ صيحته	يمعن منها الخميس في هربه
من تخذ العلم عدّة لوغى	أغناه عن درعه وعن يلبه
فاتتدب العلم للخطوب فما	خاب لعمرى رجاء منتدبه
العلم كالنور بل أفضله	ما أفقر النور أن يشبّه به
وإنما العلم للنهى عصب	والحسن في الجسم جاء من عصبه
سقيا ورعيا لروض معهده	وطلبيه وقارئى كتبه

(المصدر نفسه: ١١٥ و١١٦)

وفي مكان آخر يبرز أهمية العلم الذي به يقوى الضعيف ويغني الفقير شريطة أن يكون العلم مقرونا بالخلق الحسن والضمير السليم:

إذا ما العلم لابس حسن خلق	فرج لأهله خيرا كثيرا
وما أن فاز أغزنا علوما	ولكن فاز أسلمنا ضميرا

(المصدر نفسه: ٢٦٦ و٢٦٧)

والرصافي يطلب اقتران العلم بالعمل، لأنّ العلم الذي لا يقترن بالعمل كالشجرة بلا ثمر:

(الفاخوري، ٢٠٠٢م: ٤٩٠)

أبنوا المدارس واستقصوا بها الأملا
حتّى نطاول فى بنيانها زحلا
لا تجعلوا العلم فيها كلّ غايتكم
بل علّموا النّشء علما ينتج العملا
٢. الإحسان:

كان الرصافي أشدّ الناس اهتماما لشأن الفقراء لمّا رآهم فى حالة من الشقاء، يزرعون تحت وطأة الأغنياء وتنافسهم فى جمع المال وكسب المناصب، ولمّا رآهم لا يكادون يعرفون من الحياة إلا إرضاء طمع الأغنياء والأقوياء، وذلك فى حالة أنهم ينظرون إليهم بازدراء واحتقار فربما الشاعر الناس عن النظر إليهم بعين الازدراء والاحتقار، لأنّ فى هذا العمل زيادة فى شقاء الفقير وبؤسه وعنائه، يدعوهم إلى أن يرحمهم، يعينهم، يمدّوهم بالمال الذى ما جمعه ولاكنزوه إلا من الفقراء من كدّهم وعنائهم وما جاع فقير إلا بما متّع به غنى:

أبها الناظر ذا الفقـ	ربعين الازدراء
كن إذا كنت غنيا	راحما للفقراء
أنت لولاهم لما أصـ	بحت بعض الأغنياء
إنّ أهل الفقر يشقو	ن لأرباب الشراء
إنّهم يسعون للمشـ	رين سعى الأجراء
إنّهم قد مهنوا النا	س بكدّ، وعناء
وكفّوهم كلّ شغل	منتج كلّ رخاء
أغنياء الناس عاشوا	بمساعى الفقراء

(الرصافي، ٢٠٠٢م: ١١ و١٢)

ولكن الرصافي كان يعلم أنّ الأغنياء أحبّ شىء عندهم المال والثروة، فلا يرضون بالإحسان إلا بعد غليان عواطفهم الإنسانية، لذلك استفاد من المقايسة بين حالة الفقراء والأثرياء فى أيام الفرح والأعياد، يطلب إثارة العاطفة الحزينة والشفقة على المساكين،



مثلاً أنظروا إلى قصيدة اليتيم في العيد، كيف يصوّر حال المعيّدين فإذا هم في هرج ومرج، هذا تبدو آثار التعمّة والفرح عليه وهذا آثار البؤس والفقر، وكيف يقرع الطفل الفقير على الطبل الذي ينادى الناس بأنّه فقير يحتاج إلى معونتهم، والناس يفرحون من نداء هذا الطبل، ويعتنون بصوت الطبل غافلين عن مطربهم:

أطلّ صباح العيد في الشرق يسمع
صباح به تغدو الحلائل بالحلى
ألا ليت يوم العيد لا كان إنّه
وفي الحىّ مزمار لمشجى نعيه
فجئت وجوف الطبل يرغو وحوله
لقد وقفوا والطبل يهتزّ صوته
ترى ميعة الإطراب والطبل هادر
وقفت أجيل الطرف فيهم فراعنى
على كثر قرع الطبل يقرع سمعه
يردّ ابتسام الواقفين بحسرة
ويرسل من عينيه نظرة مجهش
له رجفة تتنابه وهو واقف
يرى حوله الكاسين من حيث لم يجد
فكاد ابتسام القوم كالتلج قارسا

ضحيجا به الأفرح تمضى وترجع
وترفضّ من عين الأرامل أدمع
يجدّد للمحزون حزنا فيجزع
غدا الطبل فى دردابه يتقعقع
شباب و ولدان عليه تجمعو
فتهتزّ بالأبدان سوق وأكرع
تفيض وفي أعصابهم تتميع
هناك صبىّ بينهم مترعرع
فلم يلف رجعا للجواب فيرجع
تكاد لها أحشاؤه تتقطع
وما هو بالباكى ولا العين تدمع
على جانب والجوّ بالبرد يلسع
على البرد من برد به يتلّفّع
لدى حسرات منه كالجمر تلذع

(المصدر نفسه: ٣٩٤)

إنّما لم يكتف الرصافي بإثارة العواطف بل تكلم عن رفعة درجة المحسنين تشويقاً للناس إلى الإحسان، وقال إنّ المحسنين بصنيعهم يستعبدون الأحرار لأنّهم يخفّفون من عناء المعوزين والفقراء، والإحسان من أبرز ما حثّت الديانة عليه، والمحسن قريب إلى الله وإلى الناس:

لو كنت أعبد فى ذى الدنى لعبدت من دون الإله المحسنا

فى مجتنى غرس الخليفة لم أجد
هو فى الخليفة ذو عجائب سرّها
بيناه يغدو للنفوس مقيّدا
يستعبد الأحرار وهو صنيعهم
غرسا سوى الإحسان حلو المجتنى
أعياء اللبيب، وأعجز المتفطنا
بالحبّ يطلق بالتناء الألسنا
ويردّ بغض المبغضين تحنّنا

(المصدر نفسه: ٥٧٨)

٣. التعاون:

يعتقد الرصافى أنّ التعاون لازمة من لوازم الحياة الاجتماعية بل هو أبرز لوازمها، وهو شعور الجميع بمسؤولية بعضهم عن بعض، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول عليه، يسأل عن نفسه، ويسأل عن غيره، يمدّ يد المعونة فى حاجة المحتاج وإغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب، وتأمين الخائف، وإشباع الجائع، والمساهمة العملية فى إقامة المصالح العامة؛ وهو قانون من قوانين الاجتماع الراقية، وعنصر من عناصر الحياة الطيبة، بل هو الأساس فى حياة الأمم وبقائها عزيزة كريمة لها هيبتها وقائمة بواجبها على النحو الذى يحقق لها أمجادها ويفرض على الدنيا احترامها:

يعيش الناس فى حال اجتماع
وتكثر للتعاون والتفادى
ولو ساروا على طرق انفراد
وإن صفرت يدّ من ربيع زرع
بذاك قضى اجتماع الناس لّمّا
يساند بعضهم فى العيش بعضا
ولم يصلح فساد الناس إلا
تشاد به الملاجئ لليتامى
فتحدث بينهم طرق انتفاع
على الأيام بينهم الدواعى
لما كانوا سوى همج رعا
أعيد ثراؤها بيد صناع
أن اعتصموا بحبل الاجتماع
مساندة ارتفاق وانتفاع
بمال من مكاسبهم مشاع
وتمتار المطاعمم للجياع

(المصدر نفسه: ٣٨٩ و ٣٩٠)

٤. عدم الإسراف والاقتصاد:

للاقتصاد أهمية كبرى، وأثر بالغ فى حياة الإنسان، وتحقيق رخائه النفسى



والجسمي، والإسراف والإفراط في المباهج واللذات، أشياء كلها تدل على سفاهة العقل وضعف في النفوس، قد أماتت القيم، وأثارت المفسد، وولدت فراغاً عريضاً في النفوس، وأمراضاً اجتماعية من فقر وبطالة وبلادة وتخمة في العقول وترف استنزف الذوق الإنساني والحس الرفيع، فأدرك الرصافي ضرورة التوسط والاقتصاد في الحياة وعدم الإسراف في المال الذي يتكاثر فلسا فلسا، حتى يصير ثروة كبيرة ينفق منها على الفقراء والمحتاجين:

فاقتصد في موارد العيش فلسا كلَّ يوم من طائل النفقات
واجعل الفلس فوق فلس تجده بعد حين عوننا على الأزمات

(المصدر نفسه: ١٢٧)

وليس كلامه متجها إلى الأغنياء فقط، بل يدعو الفقراء أيضا أن يحتفظوا بالقرش الأبيض لليوم الأسود، وفي مجمل القول حثَّ العراقيين كلَّهم على المبادرة إلى التوسط والاقتصاد في الحياة الذي يعود نفعه على الجميع في مواجهة الأزمات:

وآخره ليوم نحس تجده مسعدا مسعفا على الخيرات
واقصد الخير في اقتصادك حتّى لا يؤول الثراء للإعنات
ليس حسن الأعمال في الناس إلا حسن ما يضمرون من نيّات
فدع الفعل كيف كان حميدا أو ذميما انظر إلى الغايات
حسنات الأنام إن لم تكن ذا ت عموم ضرب من السيّئات
يا شباب العراق هبّوا إليه وتوخوا بجمعه البركات
إن تكونوا اعترتم الأمر فيه فالبدار البدار قبل الفوات

(المصدر نفسه: ١٢٧ و ١٢٨)

النتيجة

وأخيرا نستنتج أن الرصافي أدى وظيفته أمام مجتمعه، لأنه شارك آلام مجتمعه وأخذ الشعر من قصور الملوك والحكام إلى عالم الشعب، وترك التعبير لحسه ولمشاعره

ولذوقه وفكره، فتدقق أدبه من الجمود، وخرج للحياة يتلمس منها موضوعاته الاجتماعية، ومن أهم تلك الموضوعات الفقر والحرمان اللذان عالجهما في شعره كمحلل اجتماعي حاذق، يذكر أسبابه أي الجهل، العادات البالية والتقاليد الموروثة الموهنة للعظم والإرادة، الإهمال والتواكل والتخاذل، والاستعمار؛ وفضلا عن هذا أرى الناس طرق مكافحة الفقر أي كسب العلم، الإحسان، التعاون، وعدم الإسراف والاقتصاد في الحياة؛ فلا نبالغ إذا قلنا أنه فضلا عن شاعريته يكون عالما اجتماعيا خبيراً.

المصادر والمراجع

- الأعظمى، وليد. ٢٠٠١م. *أعيان الزمان وجيران النعمان في مقبرة الخيزران*. بغداد: مكتبة الرقيم.
- بركة، محمد. ٢٠٠٥م. *مجلة مفكرة الإسلام*. مقالة معروف الرصافي وقصيدته يوم الفلوجة. لانا.
- الدروبي، إبراهيم عبد الغنى. ١٩٥٨م. *البغداديون أخبارهم ومجالسهم*. بغداد: مطبعة الرابطة.
- رجبي، توفيق. «*معروف الرصافي؛ وقفات في حياته وأدبه*». فصلية التراث الأدبي. خريف ١٣٨٨ش. العدد ٤. صص ٧٩-٧٣.
- الرصافي، معروف. ٢٠٠٢م. *الديوان*. شرحه الدكتور يحيى شامي. بيروت: دار الفكر العربي.
- زكي، محمد أمين. ١٩٤٥م. *مشاهير كرد وكرديستان*. بغداد: مطبعة التفيض الأهلية.
- الفاخوري، حنا. ٢٠٠٢م. *الجامع في تاريخ الأدب العربي الأدب الحديث*. بيروت: دار الجيل.

